[المتن]

الكَبِيرَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَة

شُرْبُ الْخَمْرِ وَإِن لَّمْ يَسْكَرْ مِنْهُ

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ...﴾ الآية [البقرة:٢١٩].

[الشرح]

أورد -رحمه الله- هٰـذه الكبيرة كبيرة شرب الخمر، قال: (وَإِن لَّمْ يَسْكَرْ) وهٰـذا تنبيه جميل من المصنف -رحمه الله-، (شُرْبُ الْخَمْرِ وَإِن لَّمْ يَسْكَرْ مِنْهُ)، يعني وإن شرب منه قليلا لم يصل به إلىٰ حد الإسكار فشُربه له كبيرة، "**وما أسكر كثيره فقليله حرام**"، حتىٰ وإن لم يسكر؛حتىٰ وإن لم يصل إلىٰ درجة الإسكار ما شرب منه فهو يعد كبيرة من الكبائر، أورد قول الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ

قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ...﴾ وهٰذا فيه تنصيص علىٰ عظم إثم من يشرب الخمر وكبر ذنبه.

[المتن]

وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة:٩٠-٩١].

وَثَبَتَ عَنِ ابْنِ عَبَّاس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُما- قَالَ: لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ مَشَىٰ الصَّحَابَةُ بَعْضُهُم إِلَىٰ بَعْضٍ وَقَالُوا: حُرِّمَت الْخَمْرُ وَجُعِلَتْ عَدْلًا لِلشِّرْكِ.

[الشرح]

أورد المصنف -رحمه الله- قول الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ وهٰذه الآية هي التي نزلت بتحريم الخمر والأمر باجتنابه قال: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ مثل ما قال: "**اجتنبوا السّبع الموبقات**" ومثل ما قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾[النساء:٣١]، فأمر باجتنابها، وهو أبلغ من الأمر بالترك كما سبق، الأمر بالاجتناب أبلغ من الأمر بالتّرك، يعني كونه في منأىٰ وفي بعد عنه، فهٰذه الآية التي نزلت بتحريم الخمر.

أنظروا إلىٰ حكم الصحابة لما نزلت هٰذه الآية، لمّا نزلت الآية يقول ابن عباس: (مَشَىٰ الصَّحَابَةُ بَعْضُهُم إِلَىٰ بَعْضٍ) يعني يتناقلون هٰذا الخبر و يقول بعضهم لبعض: (حُرِّمَت الْخَمْرُ وَجُعِلَتْ عِدْلًا لِلشِّرْكِ)، لماذا؟ لأنّ الآية التي نزل فيها تحريم الخمر ذُكر الخمر مع الشرك؛ الأنصاب وهي الأصنام التي تعبد من دون الله، فالخمر ذُكر معه، وهم يعرفون خطر الشرك وشدّة ضرره فقالوا: (جُعِلَتْ عِدْلًا لِلشِّرْكِ).

حقيقة هنا فقه عظيم للصحابة ينبغي أن تستفيد منه ليس في هٰذا الموضع؛ بل في كل موضع عندما يأتيك الذنب قد ذُكر مع الشرك، الشّرك هو أعظم الذّنوب فلما يذكر أمر مع الشرك في مقام النهي أو الشناعة أو العقوبة، لمّا يذكر أمر مع الشرك يدل علىٰ خطورة هٰذا الذنب.

فإذاً من فقه الصحابة هنا قولهم: (جُعِلَتْ عِدْلًا لِلشِّرْكِ) هٰذا من حكمهم وهو مأخوذ من الحديث.

وسيأتي معنا في تمام التّرجمة قول النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- "مُدْمِنُ الْخَمْرِ إِنْ مَاتَ لَقِيَ اللهَ كَعَابِدِ وَثَنٍ" وسيأتي الكلام علىٰ معناه في حينه.

[المتن]

وَذَهَبَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمْرَ إِلَىٰ أَنَّ الْخَمْرَ أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ.

[الشرح]

(وَذَهَبَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمْرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُما- إِلَىٰ أَنَّ الْخَمْرَ أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ)، قوله: (أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ) يعني ما كان من هٰـذا الباب، لا يعني مثلا أنه مثلا أكبر من الشرك أو نحو ذلك وإنّما يعني ما كان من هٰـذا الباب، فالخمر أكبر الكبائر لماذا؟ لأنها أم الخبائث، لأنها أم الخبائث، ومعنىٰ أنها أم الخبائث أنها تجمع لصاحبها الخبائث إذا تعاطىٰ الخمر؛ لأنه بتعاطي الخمر يذهب عنه عقله الذي أعطاه إياه، وقد جاء عن عثمان بن عفان -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- في توضيح معنىٰ الحديث «**أن الخمر أم الخبائث**» أن رجلا عرضت عليه ثلاثة أشياء: أن يقتل نفسا بغير حق، أو أن يزني بمحارمه، أو أن يشرب قليلا من الخمر، فقال: بل الخمر أخف، فلمّا شرب ذهب عقله وفعل تلك الأشياء وزاد عليها؛ فالخمر أم الخبائث لأنه يجمع الخبائث وتتحقق في متعاطيه الخبائث؛ لأنه [باع] عقله بشربه للخمر.

[المتن]

وَهِيَ بِلَا رَيْبٍ أُمُّ الْخَبَائِثِ، وَقَدْ لُعِنَ شَارِبُهَا فِي غَيْرِ مَا حَدِيثٍ.

[الشرح]

قال: (وَهِيَ بِلَا رَيْبٍ أُمُّ الْخَبَائِثِ، وَقَدْ لُعِنَ شَارِبُهَا فِي غَيْرِ مَا حَدِيثٍ.)، فقد جاء عن النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه لعن في الخمر عشرة جاء في مقدمتهم شاربها.

[المتن]

وَقَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فَاجْلِدُوهُ، فَإِنْ عَادَ فَاجْلِدُوهُ، فَإِنْ شَرِبَهَا فَاجْلِدُوهُ، فَإِنْ شَرِبَهَا الرَّابِعَةَ فَاقْتُلُوهُ». صَحِيحٌ.

[الشرح]

ثمّ ذكر حدّ شارب الخمر في الدنيا، و هو أنه يُجلد، وكنّا قد عرفنا فيما سبق أنّ من علامات الكبيرة أو ما تُعرف به الكبيرة الحد في الدنيا أو الوعيد في الآخرة.

[المتن]

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ، حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنُ عَمْرٍو، عَنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ سُكْرًا مَرَّةً وَاحِدَةً فَكَأَنَّمَا كَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا فَسُلِبَهَا،

وَمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ سُكْرًا كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ" قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ: "عُصَارَةُ أَهْلِ جَهَنَّمَ". سَنَدُهُ صَحِيحٌ.

[الشرح]

ثمّ أورد -رحمه الله- هٰذا الحديث في خطورة شرب الخمر وما يترتب عليه من أضرار، ومن أضرار شرب الخمر الاستهانة بالصلاة بسبب شربه وتعاطيه، وهنا في العقوبة قال: ((مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ سُكْرًا مَرَّةً وَاحِدَةً فَكَأَنَّمَا كَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا فَسُلِبَهَا، وَمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ سُكْرًا)) يعني بسبب السكر ((كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ))، ما هي طينة الخبال؟ سأل الصحابة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُم- رسول الله -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فقال: "عُصَارَةُ أَهْلِ جَهَنَّمَ" يعني صديدهم وقيحهم وما يخرج من نتن لهم؛ بحرق النار وصليّ النار لهم، فتارك الصلاة أربع مرات بشربه الخمر كان حقا علىٰ الله أن يسقيه عصارة أهل النار، ومن تاب تاب الله عليه.

[المتن]

وَعَنْ جَابِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: "إِنَّ عَلَىٰ اللهِ عَهْدًا لِمَنْ يَشْرَبُ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ" قِيلَ: وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ: "عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ" أَوْ قَالَ: "عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ". خرَّجَهُ مُسْلِمٌ..

[الشرح]

ثم أورد هٰذا الحديث في عقوبة شارب المسكر يوم القيامة أن يسقيه من طينة الخبال، وفي عامة النصوص الجزاء من جنس العمل، ولو تتبّعون خاصة في مثل هٰذا الكتاب ذكر الكبائر، ذكر عقوبات الكبائر، عامة الذنوب تجد الجزاء من جنس العمل، آكل الربا: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[النساء:١٠]، شارب الخمر: يشرب من طينة الخبال، فتجد في النصوص كبيرا العقوبة من جنس العمل كما قال الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾[النبأ:٢٦].

[المتن]

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: "مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا حُرِمَهَا فِي الْآخِرَةِ". مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

وهٰذه من جنس ما سبق، الجزاء من جنس العمل، فمن شرب الخمر فيحرم شربها في الآخرة، وفي الجنة خمر ﴿لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾[محمد:١٥]، كما أخبر الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-، فمن شرب الخمر في الدنيا

حُرِمَها في الآخرة.

[المتن]

وَعَنْهُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قَالَ: «مُدْمِنُ الْخَمْرِ إِنْ مَاتَ وَلَمْ يَتُبْ لَقِيَ اللهَ كَعَابِدِ وَثَنٍ». رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ.

[الشرح]

ثمّ أورد هٰـذا الحديث، قال: «مُدْمِنُ الْخَمْرِ إِنْ مَاتَ وَلَمْ يَتُبْ لَقِيَ اللهَ كَعَابِدِ وَثَنٍ»، وعابد الوثن مشرك كافر بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-، وشرب الخمر ليس كفراً، ولهذا قال بعض العلماء في هٰـذا الحديث: يشبه أن يكون معنىٰ هٰـذا الحديث «مُدْمِنُ الْخَمْرِ إِنْ مَاتَ» يعني مدمن الخمر مستحلاً له و مات علىٰ ذلك، يعني مدمنا له مستحلاً لشربه لقي الله كعابد الوثن؛ لأنه استوىٰ هو والكافر في الكفر، لأنه استوىٰ هو و إياه في الكفر، لقي الله كعابد الوثن لأنه استحلّ ما حرم الله، أمّا إذا كان يشرب الخمر ومعتقد الحرمة فهٰذا من عصاة الموحدين وليس من الكفّار.

[المتن]

الكَبِيرَةُ الْخَامِسَةُ عَشْرَة

الْكِبْرُ وَالْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ وَالْعُجْبُ والْتِّيهُ

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[غافر:٢٧].

[الشرح]

ثمّ ذكر -رحمه الله- هٰـذه الكبيرة، كبيرة (الْكِبْرُ وَالْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ وَالْعُجْبُ والْتِّيهُ)، وكلها تدور حول معاني متقاربة: الكبر والفخر والخيلاء والتعالي والترفع والتيه والعجب بالنفس ونحو ذلك، كلها تدور حول معنىٰ واحد.

وهٰـذه الكبيرة من أشنع الكبائر وأفظعها، لأنّ العبد يتعالىٰ بنفسه ويترفّع ويرىٰ أنه أرفع من الناس وأعلىٰ من الناس وأميز منهم؛ و لهٰذا له من العقوبة ما ليس لغيره كما سيأتي في النصوص.

بدأ أولاً بقول الله -عزّ و جلّ-: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ

الْحِسَابِ﴾[غافر:٢٧]، وهٰـذا فيه أن الكبر يرتقي بصاحبه إلىٰ جحد الحقائق وغمط الناس وبطر الحق، إضافة إلىٰ ما فيه من التعالي والترفع.

وفي الآية أن الإنسان يتعوّذ بالله من الكبر و يتعوّذ بالله من المتكبّرين.

[المتن]

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[النحل:٢٣].

[الشرح]

وهٰذا فيه أن المستكبر يبغضه الله ولا يحبه.

[المتن]

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ﴾[غافر:٥٦].

[الشرح]

ثمّ أورد هٰـذه الآية، و فيها أيضا خطورة الكبر علىٰ صاحبه و أن من خطورته المجادلة بآيات الله بغير سلطان، ويكون الباعث علىٰ هٰـذه المجادلة الكبر الذي في صدر الإنسان، فالكبر خطره عظيم علىٰ صاحبه، ومن خطورته أنه يردّ الحق ولا يقبله، ويجادل بغير علم كبْرا، لما قام في قلبه من الكبر، قال: ﴿فَاسْتَعِذْ بِالله﴾[1].

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

وهٰذا يدل علىٰ خطورة الكبر وعقوبة المتكبرين، أن من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر لا يدخل الجنة.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي بُرْدَيْهِ إِذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

[الشرح]

---

[1] وأيضا موجودة في السور التالية: الأعراف الآية (٢٠٠)، النحل الآية (٩٨)، فصلت الآية (٣٦).

هٰـــذه عقوبة له من جنس عمله، هو تعالىٰ فوضعه الله، خسف به الأرض «فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا» يتقلب فيها إلىٰ يوم القيامة، ويتردىٰ فيها إلىٰ يوم القيامة.

[المتن]

وَقَالَ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «يُحْشَرُ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ، يَطَؤُهُمُ النَّاسُ».

[الشرح]

وهٰـذا جزاء من جنس العمل، يعني هم تكبّروا و تعالوا فوضعهم الله، ويؤتىٰ بهم يوم القيامة أمثال الذّر يطؤهم الناس بأقدامهم.

[المتن]

وَقَالَ بَعْضُ السَّـلَفِ: أَوَّلُ ذَنبٍ عُصِـيَ اللهُ بِهِ الْكِبْرُ، قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْـجُدُواْ لآدَمَ فَسَـجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْـتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة:٣٤]. فَمَن اسْـتَكْبَرَ عَلَىٰ الْحَقِّ كَمَا فَعَلَ إِبْلِيسُ لَمْ يَنْفَعْهُ إِيمَانُهُ.

[الشرح]

ثمّ ذكر بعض قول بعض السـلف أن أول ذنب عُصـي به الله الكِبر، وأورد الدليل علىٰ ذلك قوله - سُـبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ -: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْـجُدُوا لِآدَمَ فَسَـجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْـتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة:٣٤]، أول ذنب عُصي الله به الاستكبار، والاستكبار ترتَّب عليه الامتناع من السجود، أمره الله -تعالىٰ- بالسجود فامتنع للكبر الذي قام في نفسه، فأوّل ذنب عصي الله -تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- به هو الكبر، فمن تكبّر شابه إبليس.

[المتن]

وَعَنِ النَّبِيِّ - صَـلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ - قَالَ: «الْكِبْرُ سفهُ الْحَقِّ وَغَمْصُ النَّاسِ» وَفِي لَفْظٍ لِمُسْـلِمٍ: «الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ».

[الشرح]

وهٰـذا أمارة الكبر وعلامته مبيّنة في هٰـذا الحديث، «الْكِبْرُ سفهُ الْحَقِّ وَغَمْصُ النَّاسِ»، أو «الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ» كما في اللفظ الثاني، فهٰـذه علامة الكبر إذا وُجِدت، هٰـذا دليل علىٰ الكبر، أن يقابل الحق بالسفه وأيضا يغمط الناس حقوقهم، فإذا كان بهٰـذه الصفة فهٰـذا متكبّر، ولهٰـذا مرّ معنا أولا ﴿إِنَّ

الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾[غافر:٥٦]، فهٰذا كلّه مما يُورثه الكبر.

أيضا إبليس الكبر الذي قام في نفسه جعله يأبىٰ السجود كما أمره الله -جلّ و علا.

[المتن]

وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[لقمان:١٨].

[الشرح]

ثمّ أورد هٰذه الآية وفيها أن المختال والفخور لا يحبهما الله -تعالىٰ-، المختال في مشيته، الاختيال في المشي، يمشي متبخترا مختالا يرىٰ نفسه أزيد من غيره، وهو الفخور بكلامه، فالاختيال في الفعل، والفخر بالكلام والقول.

[المتن]

وَقَالَ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «يَقُولُ اللهُ تَعَالىٰ: الْعَظَمَةُ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي فَمَن نَّازَعَنِي فِيهِمَا أَلْقَيْتُهُ فِي النَّارِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ. الْمُنَازَعَةُ: الْمُجَاذَبَةُ.

[الشرح]

ثمّ أورد هٰذا الحديث في خطورة التكبر والتعالي والترفع علىٰ الناس، أن الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- يقول: «الْعَظَمَةُ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي» والمعنىٰ أن العظمة بمثابة الإزار والكبرياء بمثابة الرداء، يعني بمنزلته، فصفة الله هنا هي العظمة و الكبرياء، فقوله: «الْعَظَمَةُ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي» أي هما بمثابة بمنزلة الإزار والرداء، مثل هٰذا قول النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في الحديث: «الأنصار دثار والناس شعار»، فالدثار هو الذي يلي البدن من اللباس وهو أقرب، فالأنصار بمنزلته، والدثار هو اللباس الذي يكون فوقه، وعموم الناس بمنزلته، فإذاً قول: «الأنصار دثار والناس شعار» هٰذا المراد به أنه بمنزلة الشعار بمنزلة "الدِّثَار" وهٰذا معنىٰ معروف في اللّغة.

الصفة هنا العظمة والكبرياء، ابن تيمية -رحمه الله- استنبط من هٰذا الحديث استنباطا لطيفا أُشير إليه عندما تحدث عن التكبير الوارد في الصلاة وأنّ افتتاحها التكبير، قال: "ولا يغني عنه لفظ آخر حتىٰ ولو كان بمعناه أو بما يقاربه"؛ بمعنىٰ لو أنّ قائلاً قال: الله أعظم لا يحصل افتتاح للصّلاة بذلك، وهو تحدّث عن هٰذا الموضوع وأطال، قال: "والتكبير شأنه أعظم من التعظيم"، التكبير فعلا أعظم من التعظيم،

وأورد هٰذا الحديث مُستدلًّا به قال: «الْعَظَمَةُ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي»، قال: "الرداء أعلىٰ من الإزار"، والرداء أعلىٰ، و هٰذه لفتة لطيفة جدّاً في الاستنباط في هٰذا الموضوع، موضوع المفاضلة.

[المتن]

وَقَالَ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «اخْتَصَمَتْ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ إِلَىٰ رَبِّهِمَا، فَقَالَت الْجَنَّةُ: يَا رَبِّ، مَا لِي لَا يَدْخُلنِي إِلَّا ضُعَفَاءِ النَّاسِ وَسُقَّاطُهُمْ، وَقَالَت النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْجَبَّارِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ، فَقَالَ اللهُ تعالىٰ لِلْجَنَّةِ: إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي»، الْحَدِيثُ.

[الشرح]

قوله: «اخْتَصَمَتْ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ إِلَىٰ رَبِّهِمَا» هٰذا اختصام حقيقة، والجنة تكلمت حقيقةً قالت هٰذا الكلام: «يَا رَبِّ، مَا لِي يَدْخُلنِي ضُعَفَاءِ النَّاسِ وَسُقَّاطُهُمْ»، وهٰذا قولٌ بلسان المقال لا بلسان الحال؛ بل هٰذا قول حقيقة تكلمت الجنة والنار أيضا تكل|مت قالت: «أُوثِرْتُ بِالْجَبَّارِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ»، هٰذا كلام حقيقي، والله علىٰ كل شيء قدير، إن الله علىٰ كل شيء قدير، والله -عز وجل- ينطقها و ينطق الجنة، والشواهد علىٰ ذلك في أدلة كثيرة جدّاً، ولا يصح أن يقال هٰذا كلام بلسان الحال؛ بمعنىٰ أنها لم تتكلم حقيقة ولكن حالها هو هٰذا، لا؛ هٰذا تأويل، فهي تكلّمت كما أخبر النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-، وفي القرآن السموات والأرض قالتا: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[فصلت:١١]، وفي القرآن قال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء:٤٤]، والنّصوص في هٰذا المعنىٰ كثيرة.

الصحابة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُم- سمعوا حصىٰ في يد النبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: "سبحان الله، سبحان الله "، و النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- قال: «إني لا أعلم في مكة حجراً يُسلِّم علي إلا مررت عليه».

فهٰذا الكلام حقيقي بلسان المقال ليس بلسان الحال والله علىٰ كل شيء قدير، ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[يس:٦٥]، الرِّجْل تتكلم يوم القيامة واليد تتكلم، الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- علىٰ كل شيء قدير، فلا يصح أن يقال هٰذا الكلام بلسان الحال.

الشاهد من الحديث: قول النار: «أُوثِرْتُ بِالْجَبَّارِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ»، وفيه أن المتكبّر والجبار من أهل

النار الذين أُوثرت بهم النار وكانوا من أهلها.

وقوله في الحديث: «إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي»، قوله في الحديث للجنة: «إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي»، (الرحمة) هنا مصدر مضاف إلىٰ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ-، مصدر مضاف إلىٰ الله، وقال بعض العلماء أن المصدر المضاف إلىٰ الله تارة يراد به الصفة وتارة يراد به أثرها وهٰذا يُعلم بالسياق، فإذا نظرت السياق هنا قول: "الرحمة" قول الله جلّ: «إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي» السياق يدل علىٰ أن هٰذا المصدر المضاف إلىٰ الله صفة أو أثر الصفة؟ أثر الصفة، بينما قوله: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ﴾[الروم:٥٠]، "الرحمة" هنا المضافة إلىٰ الله الصفة وليس الأثر.

[المتن]

وقال الله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص:٨٣].

[الشرح]

والآية هٰذه فيها أن الله -عز وجل- جعل الآخرة لمن ليسوا أهل كبر وأهل علو في الأرض وترفُّع علىٰ الناس، وسبق أن مرت معنا هٰذه الآية فيما يتعلق بالإمام الجائر.

[المتن]

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[لقمان:١٨]. أَيْ: لَا تَمِلْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ مُعْرِضًا مُستَكْبِرًا. وَالْمَرَحُ: التَّبَخْتُرُ.

[الشرح]

ثمّ أورد هٰذه الآية، وقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تمله كما قال المصنف، وقيل أن أصل الكلمة من: "الصَّعر" وهو داء يصيب الإبل في رقابها ويؤذيها ويؤلمها فتميل رقبتها بسببه فتصبح تمشي وهي مائلة برأسها ورقبتها بسبب الصَّعَر الذي أصابها في رقبتها وآلمها فأصبحت الرقبة مائلة، يقال: إنّ هٰذا أصلها، فهنا قال: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تُميل خدّك للناس علىٰ وجه التكبر والتعالي، وعادةً المتكبر يُظهر لمن أمامه كِبْرَه بتصعير خده، يُصْعِر يعني يُظهر تكبره وتعاليه بإمالة خده لمن أمامه أو لمن يتكبر عليه.

والأمر الثاني: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي مختالا في مشيتك متعاليا ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ

فَخُورٍ﴾، الآية الأخرىٰ في سورة الإسراء قال: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾[الإسراء:٣٧]، وهٰذه لو تَفَكَّر فيها المختال المتكبِّر منعته من الكبر؛ لأنه مهما ترفعت وتعاليت فطول الجبال إلىٰ جنبك لن يبلغ طولك طول الجبال، فمهما تعاليت بجسمك وترفَّعْت لن يبلغ طولك طول الجبال، ولهٰذا جاءت السنة إذا صعد الإنسان عالٍ ورأىٰ نفسه رفيع ومرتفع وعال قد يدخل في نفسه شيء من الكبر فيُسَن له في هٰذا المقام أن يقول: الله أكبر حتىٰ ينطرد عنه الكبر وتتطامن نفسه، فمهما ترفَّع الإنسان فإنه لن تبلغ طوله طول الجبال، حتىٰ ولو كان أطول رجل في العالم ما يبلغ طوله طول الجبال، و﴿لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ﴾ يعني وإن مشيت متبخترا فمشيك لا يؤثر في الأرض، من تكون أنت؟!، فهٰذا بيان لحقارة المتكبر ووضاعته، وأنه لو تفكر في هٰذا المحيط الذي حوله، الأرض التي يمشي عليها والجبال التي جنبه هٰذا كافٍ في طرد الكبر عنه وحصول التواضع.

وفي هٰذا أيضا دعوة للتفكر، وهٰذا باب عظيم حقيقة في الذّل والتواضع لله والبُعد عن التكبّر، وأبين لكم هٰذا بشكل واضح: عندما يدخل إنسان في تفكّر في هٰذا الباب فينظر أولا كما في الآية: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾، ينظر في الأرض التي يمشي عليها وفي الجبال المحيطة به، وينظر لخلق نفسه مع خلقها، يجد أنه لا شيء بالنسبة للجبال والأرض التي هي محيطة به، وسِّع الدائرة وانظر لحالك مع الأرض كلّها وما فيها، ماذا تكون أنت؟!، وسّع الدائرة أكبر وانظر لحالك مع السمٰوات والأرض، وسّع الدائرة وتفكر في الكرسي الذي وسع السمٰوات والأرض، وسّع الدائرة وانظر إلىٰ العرش العظيم، الكرسي في العرش كحلقة في فلاة، تجد نفسك شيء صغير يَذهب عنك التكبّر، أنت شيء صغير جدّاً، ذرّة في ملك عظيم يجعلك تتواضع لله وتذل وتنكسر ويَذهب عنك رؤيتك لنفسك، ينطرد عن قلبك رؤيتك لنفسك وإعجابك بشخصك يذهب كله، ما أنت إلا ذرة صغيرة من ذرات خلقها ربّ العالمين وأوجدها، فتعرف من أنت! ولهذا المتكبر لم يعرف نفسه! لم يعرف نفسه، وإلا لو عرف نفسه وعرف ماذا يكون لما وقع فيه هٰذا الكبر.

[المتن]

وَقَالَ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ؛ أَكَلَ رَجُلٌ عِندَ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِشِمَالِهِ، فَقَالَ: «كُلْ بِيَمِينِكَ» قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ. مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ. قَالَ: «لَا اسْتَطَعْتَ». فَمَا رَفَعَهَا إِلَىٰ فِيهِ بَعْد. رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[الشرح]

وهٰذا فيه خطورة الكبر علىٰ الإنسان، المتكبر يعني من أخطر ما يكون عليه في كبره أنه يرد الحق، دائما بسبب الكبر الذي عنده يرد الحق، بينما إذا كان متواضعا تجد أنه إذا قيل له الحكم أو بيّن له الأمر يسمع ويقول لك أعرف ويُصغي ويلوم نفسه بسبب التواضع الذي عنده؛ لكنّ المتكبر نفسه متجهة دائما إلىٰ رد الحق ومنعه، وهٰذا أخطر ما يكون علىٰ المتكّبر وهو يجني عليه جناية بالغة، ولهٰذا لو عدنا نتفكّر في ذات الكبر من خلال النصوص التي وردت، مرّ معنا في الآية الذين يردون آيات الله قال الله: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾[غافر:٥٦]، وهنا فيه قضية سهلة غير مكلفة قال له النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «كُلْ بِيَمِينِكَ» وهٰذه دعوة مباركة اليمين أنظف وأنقىٰ وأكمل وأحسن يعني دعوة إلىٰ خير؛ لكن لم يمنعه من القبول إلا الكبر، لم يمنعه من القبول إلا الكبر، قال: (مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ) فكانت العقوبة قال: «لَا اسْتَطَعْتَ» ولاحظ أن المتكبر الذي منعه كبره من قبول الحق يكون عنده المخاصمة والمجادلة بالباطل، المخاصمة والمجادلة بالباطل، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ﴾[غافر:٥٦]، فهنا الرجل قال له: («كُلْ بِيَمِينِكَ»، قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ)، وهو مستطيع، ليس المانع عدم الاستطاعة إنما المانع هو الكبر، فالواجب علىٰ المسلم أن يتلقىٰ الشريعة كلها بماذا؟ بانشراح صدر، ولو رد سنّة من السنن لا يردها إلا لشيء من الكبر ولو قليل في نفسه، وإلا لو طرد عنه الكبر وأصبح متواضعا قَبِل.

وأيضـًا هنا نستفيد فائدة أن الإنسان لا يستهين بأمور السنن، فهٰذه قضية قد يراها بعض الناس قضية سهلة، وربما يقول بعضهم يعني إيش المشكلة الكبيرة لو أن الإنسان شرب بيساره؟!، فبعض الناس يستهين بها أو يستهين بالأمر.

ومن العادات الآن حقيقة انتشرت في الآونة الأخيرة شرب الماء علىٰ الطعام أو شرب العصير أو المشروبات الباردة علىٰ الطعام باليد اليسار، هٰذا كثير ما يحصل، الشرب باليد اليسار بحُجة أن اليد اليمين فيها طعام وممسكة بالطعام فتجد إذا جاء وقت الشرب يمسكن الماء بيساره ويشرب، وهو في نفسه يعني كأنه قال: أنا أريد أن أعمل أمر طيب أني لا أريد أن ألوث كأس الماء، والكأس سيُغسل سيُغسل؛ يعني علىٰ كل حال سيُغسل، فكثير من الناس يلاحظ، هٰذه الملاحظة انتشرت في الآونة الأخيرة عند الطعام الماء والعصير وهٰذه الأمور كلها باليسار وأيضا نوع الطعام الحديث (الساندوتش) في اليد اليمين وكأسة عصير حدث ولا حرج بالشرب باليسار، اليمين فيها (الساندوتش) واليسار فيها العصير، ويأكل بهٰذه ويشرب بهٰذه، هٰذا مُحرَّم، لا يجوز الأكل باليسار إلاّ لمن فعلا يده اليمين غير مستطيعة، لا

يكون أن يمنعه من عدم الأكل بها مانع آخر.

الحديث (لَا أَسْتَطِيعُ) يدلّ علىٰ أنّ غير المستطيع معذور، إذا كان غير مستطيعا فعلا فهو معذور، لكن هنا هـٰذا أمره آخر قال: (مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ)، إذًا لو كان فعلا الذي منعه عدم الاستطاعة معذور، لكن هـٰذا ليس الذي منعه عدم الاستطاعة، وإنما الذي منعه هو الكبر.

[المتن]

وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ: كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

ثمّ أورد قول النّبي -صلىٰ الله عليه وسلّم-: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ: كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ»، العتلّ: الغليظ الشّديد في كلّ شيء، والجوّاظ: هو المختال في مشيته وقيل الفاجر، والمستكبر: أي المتكبر، فهؤلاء أخبر النّبي - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنّهم من أهل النّار.

[المتن]

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ يُونُس الْيَمَامِي، حَدَّثَنا أَبِي، نَبَّأَنَا عِكْرِمَة بْنَ خَالِد، أَنَّهُ لَقِيَ ابْنَ عُمَرَ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ وَيَتَعَاظَمُ فِي نَفْسِهِ إِلَّا لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ» هٰذَا عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ.

[الشرح]

وهـٰذا فيه غضب الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ- علىٰ المتعاظم المختال.

[المتن]

وَصَحَّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «أَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ: أَمِيرٌ مُتَسَلِّطٌ، وَغَنِيٌّ لَا يُؤَدِّي الزَّكَاةَ، وَفَقِيرٌ فَخُورٌ».

قُلْتُ: وَأَشَرُّ الْكِبْرِ مَنْ تَكَبَّرَ عَلَىٰ الْعِبَادِ بِعِلْمِهِ، وَتَعَاظَمَ فِي نَفْسِهِ بِفَضِيلَتِهِ، فَإِنَّ هٰذا لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ، فَإِنَّ مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِلْآخِرَةِ كَسَرَهُ عِلْمُهُ، وَخَشَعَ قَلْبُهُ، وَاسْتَكَانَتْ نَفْسُهُ، وَكَانَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِالْمِرْصَادِ، فَلَمْ يَفْتَرْ عَنْهَا؛ بَلْ يُحَاسِبُهَا كُلَّ وَقْتٍ وَيُثَقِّفُهَا؛ فَإِنْ غَفَلَ عَنْهَا جَمَحَتْ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ وَأَهْلَكَتْهُ. وَمَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِلْفَخْرِ وَالرِّيَاسَةِ، وَنَظَرَ إِلَىٰ الْمُسْلِمِينَ شَزَرًا، وَتَحَامَقَ عَلَيْهِمْ، وَازْدَرَىٰ بِهِمْ؛ فَهٰذَا مِنْ أَكْبَرِ الْكِبْرِ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ.

[الشرح]

ثم نبّه المصنّف في خاتمة هٰذا الكلام علىٰ هٰذه الكبيرة، علىٰ أن أشرَّ الكبر من تكبّر علىٰ العباد بعلمه، من تكبّر علىٰ العباد بعلمه، لأنّ العلم هو الذي يهدي ويدلّ إلىٰ التّواضع ويرشد إليه، فبالعلم يعرف قدر التّواضع وفضيلته، ومكانة التّواضع، فإذا كان الإنسان بالعلم الذي به يُعرف التّواضع وخطورة الكبر يتكبّر، هٰذا أشرُّ النّاس، هٰذا من أشرِّ النّاس.

❁❁❁❁

[المتن]

الكَبِيرَةُ السَّادِسَةُ عَشْرَة

شَهَادَةُ الزُّورِ

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ الآية [الفرقان:٧٢].

[الشرح]

ثمّ ذكر -رحمه الله- الكبيرة السّادسة عشرة، وهي شهادة الزور، وهي الشهادة الجائرة التي يقتطع بها حقوق الناس ويعتدىٰ علىٰ أموالهم بغيا وظلما وعدوانا، فهٰذه من الكبائر أن يشهد الإنسان علىٰ زور.

(شهادة الزّور) أن يشهد الإنسان علىٰ زور أو علىٰ ظلم أو علىٰ جور.

وأورد أوّلا قول الله -عزّ وجل-: ﴿وَالذِينَ لاَ يَشهَدُونَ الزُّورَ﴾ في صفات عباد الرّحمٰن في سورة الفرقان.

[المتن]

وَفِي الْآثَارِ: عَدَلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ بِالْإِشْرَاكِ بِاللهِ.

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾[الحج:٣٠].

[الشرح]

وأيضا يشهد لهذا المعنىٰ الحديث الذي مرّ معنا «ألا أنبّئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلىٰ، قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزّور».

[المتن]

وَفِي الْحَدِيثِ الثّابت: «لَا تَزُولُ قَدَمَا شَاهِدِ الزُّورِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّىٰ تَجِبَ لَهُ النَّارُ».

[الشرح]

ثمّ أورد هٰـذا الحديث، أنّ شاهد الزّور يوم القيامة لا تزول قدماه، يعني لا يتحرّك حتّىٰ تجب له النّار لشهادته الزّور.

المصنّف قال: (وَفِي الْحَدِيثِ الثّابت)، والمحقّق يقول أنّه موضوع؛ في سنده محمد بن الفُرات، كذّبه غير واحد، والمصنّف نفسه -رحمه الله- أدخله في ميزان الاعتدال وأورد له هٰذا الحديث هناك.

[المتن]

قُلْتُ: شَاهِدُ الزُّورِ قَدِ ارْتَكَبَ عَظَائِمَ:

أَحَدِهَا: الْكَذِب وَالْافْتِرَاء، وَاللهُ تَعَالىٰ يَقُولُ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[غافر:٢٨].

وَفِي الْحَدِيثِ: «يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ لَيْسَ الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ»

وَثَانِيهَا: أَنَّهُ ظَلَمَ الَّذِي شَهِدَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ أَخَذَ بِشَهَادَتِهِ مَالَهُ وَعِرْضَهُ وَرُوحَهُ.

وَثَالِثِهَا: أَنَّهُ ظَلَمَ الَّذِي شَهِدَ لَهُ؛ بِأَنْ سَاقَ إِلَيْهِ الْمَالَ الْحَرَامَ، فَأَخَذَهُ بِشَهَادَتِهِ وَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِن مَّالِ أَخِيهِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِن النَّارِ».

وَرَابِعُهَا: أَنَّهُ أَبَاحَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَعَصَمَهُ مِن الْمَالِ وَالدَّمِ وَالْعِرْضِ؛ قَالَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: مَالُهُ وَدَمُهُ وَعِرْضُهُ».

وَقَالَ النّبي -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ اَلْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ». فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّىٰ قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

[الشرح]

ثمّ أنهىٰ الكلام علىٰ شهادة الزّور بذكر العظائم التي اجتمعت لشاهد الزّور، وأنّه اجتمع فيه عدّة عظائم، ذكر أوّلها: الكذب والافتراء، لأنه شهادة كذب وهو كاذب، وهذه عظيمه. والعظيمة الثّانية: أنّه ظلم الذي شهد عليه، لأنّه أخذ من ماله بغير حقّ فظلمه بذلك. وأيضا: ظلم الذي شهد له لأنّه ساق له مالا لا حقّ له فيه، فسيق له هٰذا المال بهذه الشّهادة الظّالمة. وأمر رابع: أنّه أباح ما حرّم الله وعصمه من المال والدّم والعرض، يعني بهذه الشّهادة، وقد قال عليه الصّلاة والسّلام: «كلّ المسلم علىٰ المسلم حرام، دمه وماله وعرضه»، فإذن شاهد الزّور مرتكب لعدّة عظائم.

[المتن]

الكَبِيرَةُ السَّابِعَةَ عَشَرة

اللِّوَاطُ

قَدْ قَصَّ اللهُ عَلَيْنَا قِصَّةَ قَوْمِ لُوْطٍ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ مِنْ القُرْآن العَزِيْزِ، وَأَنَّهُ أَهْلَكَهُمْ بِفِعْلِهِمُ الخَبِيْثِ.

وَأَجْمَعَ المُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ المِلَلِ أَنَّ التَّلَوُّطَ مِنَ الكَبَائِرِ.

قَالَ اللهُ-تَعَالَىٰ-: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾[الشعراء:١٦٥-١٦٦].

واللِّوَاطُ أَفْحَشُ مِنَ الزِّنَا وَأَقْبَحُ.

قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «اقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُوْلَ بِهِ» إِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

وَعَنْهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوْطٍ» إِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: "يُنْظَرُ إِلَىٰ أَعْلَىٰ بِنَاءٍ فِي القَرْيَةِ فَيُلْقَىٰ مِنْهُ، ثُمَّ يُتْبَعُ بِالْحِجَارَةِ.

وَيُرْوَىٰ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «سِحَاقُ النِّسَاءِ زِنًا بَيْنَهُنَّ» إِسْنَادُهُ لَيِّنٌ.

وَمَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ-رَحِمَهُ اللهُ-أَنَّ حَدَّ اللُّوْطِيِّ حَدُّ الزِّنَا سَوَاءً.

وَأَجْمَعَتِ الأُمَّةُ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ فَعَلَ بِمَمْلُوْكِهِ فَهُوَ لُوطِيٌّ مُجْرِمٌ.

[الشرح]

ثمّ ذكر هٰذه الكبيرة (كبيرة اللّواط)، وهي أن يفعل الإنسان عمل قوم لوط، ألا وهو إتيان الذّكران، إتيان الذّكران وهٰذا عمل قبيح مستقرّ في الفطر بُغضه وكرهه وشناعته، بل كما قال أهل العلم: حتّىٰ عند الحيوان البهيم يعدّ هٰذا الأمر أمرًا مشينا، حتّىٰ عند الحيوان البهيم، ولهذا لا يعرف أنّ تيسا ينزو علىٰ تيس أو حمارا ينزو علىٰ حمار، هٰذا لا يعرف حتّىٰ عند الحيوان البهيم، ولكن إذا فسدت فطرة الإنسان وانتكس، فعل فعلا حتّىٰ الحيوان البهيم لا يفعله.

وذكر المصنف بعض النصوص فيمن يفعل هذه الجريمة، وذكر إجماع المسلمين وغيرهم من أهل الملل أن التلوط من الكبائر، وذكر قول الله -عزّ وجلّ- في وصفه لقوم لوط بأنهم ﴿قَوْمٌ عَادُونَ﴾[الشعراء:١٦٦] أي لحرمات الله -سبحانه وتعالىٰ- وحدوده، ونصّ -رحمه الله- علىٰ أن اللواط أفحش من الزنا وأقبح؛ ولهذا عقوبته الأخروية والدنيوية أعظم، ولهذا قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «اقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُوْلَ بِهِ».

وأورد الحديث الذي فيه لعن من عمل هٰذا العمل (عمل قوم لوط).

والعلماء اختلفوا في طريقة قتله، واتفقوا علىٰ أنّه يقتل، ولكن اختلفوا في طريقة قتله، وابن عباس نقل عنه المصنف -رحمه الله- أنه يُلقىٰ من شاهق من مكان عالٍ ويُتبع بالحجارة. وأورد فيما يتعلق بالسّحاق، وهٰذا يقع بين المرأة والمرأة، وهٰذا أيضا من الأفعال الشَّنيعة. والحديث لم يثبت، لكن هٰذا فعل شنيع وأمر منكر، وهو من الفساد وقلة الدِّين.

وقال: (وَمَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ- أَنَّ حَدَّ اللُّوْطِيِّ حَدُّ الزِّنَا سَوَاءً. وَأَجْمَعَتِ الأُمَّةُ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ فَعَلَ بِمَمْلُوْكِهِ فَهُوَ لُوطِيٌّ مُجْرِمٌ.) مملوكه: أي من تحت يده من العبيد.

نقف، والله أعلم وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد.